

تفسير البحر المحيط

@ 86 @ تعالى : { لَيْسَ تَخْلَقَنَّهُمْ فِى الْاَرْضِ } . .

وقوله : { وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْاَرْضِ } : انتقال من حالة المضطر إلى رتبة مغايرة لحالة الاضطرار ، وهي حالة الخلافة ، فهما طرفان . وكم رأينا في الدنيا ممن بلغ حالة الاضطرار ثم صار ملكاً متسلطاً . وقرأ الجمهور : تذكرون ، بناء الخطاب ؛ والحسن ، والأعمش ، وأبو عمرو : بياء الغيبة ، والذال في القراءتين مشددة لإدغام التاء فيها . وقرأ أبو حيوة : تتذكرون ، بتاءين . وظلمة البر هي ظلمة الليل ، وهي الحقيقة ، وتنطلق مجازاً على الجهل وعلى انبهام الأمر فيقال : أظلم عليّ الأمر . وقال الشاعر :
تجلت عمايات الرجال عن الصبا .

أي جهالات الصبا وهداية البر تكون بالعلامات ، وهداية البحر بالنجوم . .
{ وَمَنْ يُرْسِلْ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيِّنَ يَدَيْهِ رَحْمَةً } : تقدم تفسير نظير هذه الجملة . وقرء : عما تشركون ، بناء الخطاب . { أَمْ مَنْ يَدَّأُ الْخَلْقَ } :
الظاهر أن الخلق هو المخلوق ، وبدؤه : اختراعه وإنشاؤه . ويظهر أن المقصود هو من يعيده
□ في الآخرة من الإنس والجن والملك ، لا عموم المخلوق . وقال ابن عطية : والمقصود بنو
آدم من حيث ذكر الإعادة ، والإعادة البعث من القبور ، ويحتمل أن يريد بالخلق مصدر خلق ،
ويكون يبدأ ويعيد استعارة للإتقان والإحسان ، كما تقول : فلان يبدأ ويعيد في أمر كذا إذا
كان يتقنه . وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف قال لهم أبدأ الخلق ثم يعيده وهم
منكرون الإعادة ؟ قلت : قد أنعم عليهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذر
في الإنكار . انتهى . .

ولما كان إيجاد بني آدم إنعاماً إليهم وإحساناً ، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال : {
وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ } بالمطر ، { وَالْاَرْضِ } بالنبات ؟ { قُلْ هَاتُواْ
بُرْهَانَكُمْ } : أي أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تدعون من إنكار شيء مما تقدم تقريره
{ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } في أن مع □ إلهاً آخر . فأين دليلكم عليه ؟ وهذا راجع إلى
ما تقدم من جميع الاستفهام الذي جيء به على سبيل التقرير ، وناسب ختم كل استفهام بما
تقدمه . .

لما ذكر إيجاد العالم العلوي والسفلي ، وما امتن به من إنزال المطر وإنبات الحقائق ،
اقتضى ذلك أن لا يعبد إلا موجد العالم والممتن بما به قوام الحياة ، فختم بقوله : { بَلْ
هُمْ قَوِّمٌ يَعْدِلُونَ } ، أي عن عبادته ، أو يعدلون به غيره مما هو مخلوق مخترع .

ولما ذكر جعل الأرض مستقراً ، وتفجير الأنهار ، وإرساء الجبال ، وكان ذلك تنبيهاً على تعقل ذلك والفكر فيه ، ختم بقوله : { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } ، إذ كان فيهم من يعلم ويفكر في ذلك . ولما ذكر إجابة دعاء المضطر ، وكشف سوء ، واستخلافهم في الأرض ، ناسب أن يستحضر الإنسان دائماً هذه المنة ، فختم بقوله : قليلاً ما تذكرون ، إشارة إلى توالي النسيان إذا صار في خير وزال اضطرابه وكشف سوء عنه ، كما قال : { نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ } . ولما ذكر الهداية في الظلمات ، وإرسال الرياح نشرًا ، ومعبوداتهم لا تهدي ولا ترسل ، وهم يشركون بها الله ، قال تعالى : { عَمَّا يُشْرِكُونَ } . واعتقب كل واحدة من هذه الجمل قوله : { مَّعَ اللَّهِ } ، على سبيل التوكيد والتقرير أنه لا إله إلا هو تعالى .

قيل : سأل الكفار عن وقت القيامة التي وعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم) ، وألحوا عليه ، فنزل : { قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، الآية . والمتبادر إلى الذهن أن من فاعل يعلم ، والغيب مفعول ، وإلا استثناء منقطع لعدم اندراج في مدلول لفظ من ، وجاء مرفوعاً على لغة تميم ، ودلت الآية على أنه تعالى هو المنفرد بعلم الغيب . وعن عائشة ، رضي الله عنها : من زعم أن محمداً يعلم ما في غد ، فقد أعظم القرية على الله ، والله تعالى يقول : { قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ * الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ } ، ولا يقال : إنه مندرج في مدلول من ، فيكون في السموات والأرض طرفاً حقيقياً للمخلوقين فيهما ، ومجازياً بالنسبة إليه تعالى ، أي هو فيها بعلمه ، لأن في ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز ، وأكثر العلماء ينكر ذلك ، وإنكاره هو الصحيح . ومن أجاز ذلك فيصح